- جريدة الرأي الأردنية
- الجمعة 22 يناير 1997
- عنوان المقال: أبو فهر محمود محمد شاكر لمحات من علمه وخلقه
- كاتب المقال: ناصر الدين الأسد

صورة طبق الأصل

ابو فهر محمود محمد شاكر

بقلم الاستاذ الدكتور : ناصر الدين الاسد

كان شيخنا محمود محمد شاكر أمة وحده في معرفة التراث وعلوم العربية. وقد ختمت به طبقة من العلماء الافذاذ بدأت بشيخه سيد بن علي المرصفي صاحب «رغبة الامل» و«اسرار الحماسة».

ولا يقتصر علم محمود محمد شاكر على هذا الضبط والتمحيص والتدقيق فيما يحقق ويشرح من كتب التراث حتى اصبح الغاية في الضبط والمثال الذي يحتذى في التمحيص والتدقيق، ولا على هذه الشروح والتخريجات التي تملأ حواشي تلك الكتب بحيث تكاد تزيد احيانا على متن الكتاب نفسه، ولا على تلك الاستطرادات التي تتمثل في تعليقاته المفيدة حتى ان القارئ ليحس – لاستمتاعه واستفادته – ان هذه الاستطرادات الصق بالموضوع وادخل فيه من ان تعد استطرادا.

ولا يقتصر علمه كذلك على هذه الذاكرة العجيبة التي دربها، فلا تكاد تخذله، لطول إلفه ومعايشته لامهات المصادر ونوادرها من مطبوع ومخطوط، ولا على هذه الاشارات التي دأب على تقييدها في هوامش الكتب في خزانته العامرة بكل نفيس، يربط الكتب بعضها ببعض حتى انه ليفتح كتابا في قضية بعينها فيرى في الهامش مواضع ورود هذه القضية في الكتب الاخرى، فاصبح بذلك كل كتاب من كتبه دليلا يقود الى الكتب الاخرى ومرشدا يدل على غيره، ولا على هذه الفهارس التي عنى نفسه بصنعها لكثير من المصادر ذات الطبعات القديمة غير المفهرسة، او بنسخها بيده اذا لم يتيسر له اقتناؤها، دونما كلل ولا فتور، حتى اصبحت تيسر له المراجعة وتفتح امامه مغاليق تلك المصادر.

ولا يقتصر علمه ايضا على هذه المقالات التي كان ينشرها في عدد من الجرائد والمجلات حين تربطه باصحابها او بمحرريها روابط تتيح لهم عقد صلات من المودة تسلس لهم قياده، ثم اخذ يجمع بعضها في كتب فاذا بها تكاد تكون متسلسلة ذات وحدة موضوعية يمسك بعضها برقاب بعض، ولا على هذا الشعر الذي كان ينظمه ويطرفنا بسماعه حينا بعد حين فتحسب انك تسمع شعر فحل من فحول العربية القدامى على ما فيه من حداثة التناول وعصرية المعاني، ثم انقطع عن قول الشعر وعن انشاده مرة واحدة كأن لم يكن منه شيء.

وكذلك لا يقتصر علمه على هذا الاسلوب الفريد الذي لا تخطئ فيه شخصية كاتبه مهما يكن الموضوع فهو يصرخ دالا على صاحبه، وتنبض كل عبارة فيه بأصالة الكاتب وتفرده.

لا يقتصر علمه على امر من هذه الامور وحده، يقف عنده وينتهي اليه، وانما هو كل ذلك معا في آن، ثم ان فوق ذلك امرا اخر لا يظهر تفصيله في كتاب من كتبه، ولا يعرفه الا من عايشه معايشتي اياه، وتلمذ له كما كنت، سنوات طوالا: ذلك الامر هو بصر نافذ عجيب في تراثنا الشعري يكاد يخترق اسداف الماضي فيرى من خلالها صورة الشاعر العربي القديم وهو ينظم قصيدته ويحس بما يعتلج في حناياه من لواعج ويضطرب في اعماقه من اشواق، فيتابعه نفسا نفسا، وينظر فيما وصلنا من شعر اختلف ترتيب ابياته في الروايات المتعددة، فيعيد ترتيبه على الصورة التي يخيل اليك معها ان ابيات القصيدة كانت عند شاعرها القديم على هذه الصورة الجديدة، لان النسق الشعري والوحدة الفنية يقتضيان هذا التتابع. وهو في هذا الجهد الذي يقوم به يمثل ولادة القصيدة مرة ثانية، وترى عليه – حين يمثل ذلك في دروسه – من امارات الانفعال والذهول – واكاد اقول الغيبوبة – ما تحسب معه انه هو الشاعر القديم صاحب هذه القصيدة وهو ينظمها، ينفي في اثناء ذلك ابياتا لم تكن في الاصل من القصيدة وانما غم على الرواة أمرها لتشابهها في الموضوع والبحر والقافية، فانديست بين هذه الابيات وهي ليست منها، ثم يقدم بيتا او مجموعة ابيات ويؤخر بيتا فيضعه بين ابيات اخرى، ويغير لفظة هنا ولفظة هناك، ويضع في مكانها لفظة وجدها في رواية اخرى فضلها على الاولى بحدسه الذي يحملك على ان تستسلم له وتقر بان ما يفعل هو الصواب، وهو في كل ذلك يهز رأسه، ويمد بصره ثم يدنيه، ويقبض كفيه ويفتحهما ويرفع ذراعيه او احداهما ويخفضهما، ويذهب في الغرفة ويجيء، ويقف ويقعد، ثم ينتهي كل ذلك فجأة كما بدأ، واذا بالقصيدة امامك على صورتها الجديدة.

وليتني استطيع ان اصف عمل الاستاذ محمود في هذا وصفا يحيط باطرافه ويكشف عن جوانبه، وانّى لي ذلك وقد حاولته مرارا، فقطعني دونه العجز عن المضي فيه، حتى ظننت في نفسي شيئا من العقوق حين لم اسجل ما كان يفعل – ونحن نقرأ عليه «الاصمعيات» – من عجائب وبدائع لا نملك الا ان نتابعها مشدوهين ثم لا نجد القدرة على الحديث المفصل عنها او الكتابة المبينة لها، ان ما كان يفعله في «الاصمعيات» لامر يروع المرء فيلجمه، وهو مما يدرك بعض جوانبه من شهده وشارك فيه، ثم يعجز عن ان يؤدي صفته الى غيره.

ومع ذلك فقد انقطع الاستاذ محمود محمد شاكر عند «الاصمعيات» الاولى، ولم يكمل دروسه، ولم يواصل عمله، ولم يسجله لنفسه ولا لغيره حتى يخرجه في كتاب او مقالات تبقى اثارها ويستمر النفع بها. شأنه هذا شأنه في كثير من اعماله التي بدأها ولم يتمها، كفعله في كتاب «امتاع الاسماع» للمقريزي، حين حقق سنة ١٩٤١ الجزء الاول منه وانقطع عنده.

وكفعله في تحقيق كتاب «تفسير ابي جعفر الطبري» حين بدأ اصدار الجزء الاول منه سنة ١٩٥٤ واستمر حتى اصدر الجزء السادس عشر سنة ١٩٦٩م، فاستغرق في ذلك العمل خمس عشرة سنة متقطعة، تخللتها فترات توقف لاسباب شتى، ولم يتم الا اقل من نصف الكتاب، فقد وقف عند الجزء الثالث عشر من الطبعة البولاقية عند الاية السابعة والعشرين من سورة «ابراهيم». وقد كان حق الكتاب ان يتم كله في تلك المدة او في اقل منها اذ كان الاتفاق بين الناشر والمحقق على اصدار ثلاثة اجزاء كل عام.

وكفعله ايضا في كتاب «جمهرة نسب قريش» للزبير بن بكار الذي حقق الجزء الاول منه واصدره سنة ١٩٦٢م اما الجزآن الاخران اللذان وعد بهما فقد انبتت بهما السبل وبقيا وعدين غير منجزين.

وكفعله في بحثه «الاحرف السبعة التي نزل بها القرآن العظيم وكتابة المصحف»، فقد بشرنا باتمامه قبل سنوات طوال، وذكر ذلك في موضعين في الجزء السادس عشر من تحقيقه لتفسير ابي جعفر، الموضع الاول عند تفسير الاية الحادية والثلاثين من سورة الرعد وايراد ابي جعفر قراءة ابن عباس، والموضع الثاني في مقدمة الجزء السادس عشر نفسه من التفسير.

وكنت اتمنى لو استطعت ان اقتبس هذين النصين،

الجمعة ٢١/٨ ١٩٩٧م

ر... لمحات من علمه وخلقه

بالرغم من طولهما لاقدم انموذجا من اسلوب الاستاذ محمود محمد شاكر وطريقته في الكتابة والتعبير، ولاستشهد على مذهبه في التحقيق وتمحيص الاخبار والنصوص، ولاضرب مثلا على ما قدمت من تراخي الوعود عنده مع الزمن . فالامال العراض التي تملأ نفسه تتحبس لكثرتها في فكره، وتحول بينه وبين التنفيذ حوائل، ربما كانت حيناً من اصغر الامور التي لا يقف عندها غيره، وربما كان مردها حينا ثانيا الى هوى يتقلب مع الرضى والغضب فيغلب احدهما فيقع صاحبه اسيرا له، وربما كان مردها حينا ثالثاً الى موقف يحسبه متصلا بمبدأ او فكرة او عقيدة يعرض له من خلال نشر كتاب او الاستمرار في تحقيقه، فينافح دون المبدأ او الفكرة بالتأبي والرفض والامتناع عن الاستمرار فيما كان ماضيا فيه، واشهد اني سمعت منه مرتين اجزاء من بحثه عن الحروف السبعة. كانت المرة الاولى قبل ان يستقر البحث في فكره ويستقيم بين يديه، فقد اخذ يكتب ويسمعنا ما يكتب ثم لا يرضى عنه، فيمزق الصحف التي كتبها، وكانت المرة الثانية حين رأى ان الموضوع قد اتضحت معالمه وعبدت مسالكه، فكتب ما كتب واخذ يقرأه لنا وعيناه تلمعان من النشوة، ولعينيه لمعان عجيب، ما رأيته في عيني احد. حين يكتشف شيئا لا يعرفه غيره من حقائق العلم، او حيث يكتشف ما يظنه من حقائق النفوس فيمن يحيط به من الوافدين على بيته من طالبي العلم من مناهله، فقد كانت اذن بعض وعوده لا ينقصها لتتحقق الا ايسر اليسير، لان العمل تام بين يديه او مقارب التمام، ولكنها الامور الاخرى التي حرمتنا ما حرمتنا من بدائع نتاجه. ولن انسى ما عانيت معه في سبيل استكمال صدور «تفسير الطبري» حين توقف مرتين، كانت الثانية بعد الجزء الخامس عشر فدخلت في الموضوع دخول المدل بمكانته عنده وعند صاحبينا النبيلين الاستاذ شفيق متري احد اصحاب دار المعارف والاستاذ عادل غضبان مدير النشر فيها، فوسعا الامر بخلقهما وبمعرفتهما بقيمة ما يفعل هذا المحقق العالم، فقبلا ما لم يكن من قبل مقبولا وذللا من صعوبات المال والادارة ما ارضى نفس الاستاذ محمود. واتاح صدور الجزء السادس عشر. وما كاد يصدر حتى عاد عالمنا الى تأبيه، وانقطع امر التفسير بعد ذلك، وبقي غير مستكمل، ولم يفلح معه جهد لاستكماله، بل انه لم يستجب لنفسه حين دعا في مقدمته للجزء السادس عشر بدعاء صالح ثم قال: «وان يوفقني الى استدراك ما فات، وان يسدد خطاي على الطريق حتى افرغ بعونه سبحانه من اداء حقه علي بنشر هذا التفسير الجليل غير مصروف عنه بحائل من شر نفسي او قاطع من شر خلقه...».

والحدة في الطبع، صفة عرفناها في هذا العالم الجليل، فالفناها، وان لم تطمئن لها نفوسنا، واعجزتنا الوسائل عن معرفة وقت انفجارها واسبابه، لقد كانت تشن علينا من حيث لم نكن نحتسب، وما اكثر ما كنا نطلب رضاه في امر فاذا هذا الامر يصبح هو ذاته مبعث سخطه، حتى اذا ما سخط هاج هياجا عظيما لا يترك احدا ينجو منه حتى اقرب الناس اليه واعزهم لديه، فيحطم كل وشيجة ويدمر كل صلة.

وانما ذكرت ما ذكرت لافسر جوانب من صفات هذا العالم التي كانت سببا في انه لم يغن المكتبة العربية بما كان يتوقع ممن كان في مثل علمه، وسببا في توقفه عن اكمال ما بدأه من كتب وبحوث. فكثيرا ما كان يركبه حران يمسكه عن المضي فيما كان شرع فيه، فيتخلف وقد كان السابق، ويسيطر عليه ما يبطئ به عن الشروع فيما كان حقه ان يشرع فيه، وكان يستبد به هاجس ارتياب من الناس وفي علاقتهم به، يتدرج من مرحلة الى مرحلة حتى يفضي به الى رفض كل ما يقترحونه او يعرضونه او يشيرون به عليه من قيامه بعمل علمي او نشرهم له، الى ان اصبح في السنوات الاخيرة يستقل وحده بالاعمال كلها: فهو المؤلف او المحقق، وهو الطابع على مطابع خاصة ليست بدور نشر، وهو الموزع لما يطبع مستعينا باصدقائه وتلاميذه في بعض الاقطار العربية.

وعلى ذلك كله فان ما اصدره هذا العالم الجليل من نفيس النتاج: شرحا وتحقيقا وتأليفا، ليعد ذخيرة عظيمة حقا من حيث عددها ومن حيث قيمتها، على مدى ستين عاما متواصلة منذ نشر في سنة ١٩٣٠ فصولا عن كتاب «الام» للشافعي في جريدة البلاغ، وحسبي ان اختم هذه المقالة بما كنت ذكرته عنه حين صدر الجزء الخامس من تفسير الطبري (مجلة معهد المخطوطات . المجلد الثاني . الجزء الاول . ايار ١٩٥٦): «وامام هذا الصرح الممرد وقف المحقق الثبت الاستاذ محمود محمد شاكر سنوات طوالا يطرق بابه، في رفق حينا، وفي عنف حينا آخر، وفي تثبت وعزم واصرار في جميع الاحيان، حتى انفتح له، فولجه، وجاس خلاله: حجرة حجرة، وقاعة قاعة، يستبين معالمه، ويستجلي خفاياه، ويستخرج مكنونه، وينصب فيه من المعالم والصوى ما يهديه سبيله حين يعود اليه ليواصل سعيه، وقد عاد مرات ومرات. فلما اطمأن الى انه مستطيع ان يجلو هذا الاثر الخالد لابصار بني قومه عقد العزم ومضى يفري طريقه فريا.

فوضع بين يديه مخطوطات الكتاب ومطبوعاته، واتخذ من أصح المخطوطات أمّاً اعتمدها، وجعل من المطبوعات نسخا اشار الى ما فيها من خلاف وفروق، ثم راجع نص الكتاب على كتب التفسير التي نقلت عنه، وخاصة تفسير ابن كثير وابي حيان والقرطبي، والسيوطي في «الدر المنثور»، والشوكاني في «فتح القدير»، ثم راجع ما فيه من آثار ونحو ولغة وشواهد شعرية على مظان روايتها واصولها ودواوين العرب. وبذلك استطاع ان يحرر النص تحريرا لم يكن من المستطاع ان يتم بغير هذا، ونسب ما لم يكن منسوبا من الاشعار، وشرحها، وحقق بعض قصائدها لجاء في ذلك بثروة ادبية خصبة. واشار الى المواطن التي نقلها المفسرون من الطبري فأخطأوا النقل او اغفلوا بعض الالفاظ والعبارات، وتتبع ما في الكتاب من اصطلاح النحو من مفردات اللغة التي لم تذكرها المعاجم، ووضع لهما فهرسين في آخر كل جزء. وعني بالفواصل وعلامات الترقيم يميز بها اجزاء الجملة، ويربط بين طرفيها المتباعدين، ونبه في كثير منها . في الحاشية . على اصل سياق العبارة، ولولا ذلك لتردد القارىء، ولاضطر الى ان يعيد قراءة كثير من العبارات مرتين او مرات حتى يستبين وجه القول فيها.

ومن يراجع مخطوطات الكتاب، ومطبوعتيه الكاملتين، ومطبوعته الثالثة التي لم تتم بعد، ثم يراجع الاجزاء الخمسة التي صدرت حتى الآن من هذه الطبعة التي نتحدث عنها، ير . في وضوح ويسر . مدى الجهد الذي بذله المحقق، وأعانه عليه طبع عربي أصيل، وسليقة سليمة، وبصر بكلام العرب، وتمرس بالتحقيق العلمي، وألفة عجيبة للمصادر الاولى لتراثنا الفكري».

رحمك الله يا أخي واستاذي، وغفر لي ولك ما فرّط منّا وما فرّطنا فيه في سالف ايامنا، واثابك عن العربية والاسلام كفاء ما خدمتهما ودافعت عنهما. وإنا لله وإنا إليه راجعون.

تم تحميل هذه المادة

من موقع الأستاذ:

أبو فهر

محمود محمد شاكر

الموقع الرسمي للأستاذ

abufehr.com

[تشكر إدارة الموقع فريق صفحة:

شيخ العربية وحامل لوائها محمود محمد شاكر،

والأستاذة الفاضلة حلا محمد الخزاعلة...]